



-1-

روى الطبرى في تاريخه أن علياً وطلحة والزبير اجتمعوا ليلة الجمل، فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه فلم يجدوا أمراً هو أمثل من الصلح. فافترقوا على ذلك واطمأنّت النّفوس، وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية. وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشّر ليلة باتواها قط، قد أشرفوا على الـهـلـكـةـ، وجعلوا يـشـاـوـرـونـ لـيـلـتـهـمـ كلـهـاـ، حتـىـ اجـتـمـعـواـ عـلـىـ إـشـاـبـ الـحـرـبـ فيـ السـرـ. ثـمـ غـدـواـ معـ الغـلـسـ (أـيـ معـ ظـلـمـةـ آـخـرـ اللـيـلـ) وـاـنـسـلـوـاـ إـلـىـ ذـلـكـ الـأـمـرـ اـنـسـلـاـ، فـخـرـجـ مـضـرـيـهـمـ إـلـىـ مـضـرـيـهـمـ وـيـمـانـيـهـمـ إـلـىـ يـمـانـيـهـمـ فـوـضـعـواـ فـيـهـمـ السـلـاحـ، فـثـارـ كـلـ قـوـمـ فـيـ وـجـوـهـ أـصـحـابـهـمـ الـذـيـنـ بـهـتـوـهـمـ، وـبـدـأـتـ الـحـرـبـ.

قال الشيخ محب الدين الخطيب في تعليقه على "عواصم" القاضي ابن العربي: "وهكذا أنسبوا الحرب بين علي وأخوه الزبير وطلحة، فظنّ أصحابُ الجمل أن علياً غدر بهم وظنّ علي أن إخوانه غدروا به، وكلُّ منهم أتقى لله من أن يفعل ذلك في الجahلية، فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل من أخلاق القرآن؟"

-2-

إننا نعيش في سوريا اليوم فتنةً كيُومِ الجَملِ، فكـلـماـ أـوـشـكـتـ نـارـ الـفـتـنـةـ أـنـ تـخـبـوـ بـجـهـوـدـ الـمـصـلـحـيـنـ جاءـ مـنـ يـصـبـ علىـ النـارـ

زيتاً وينذيها بالوقود والبارود. إن الحالة التي عشناها في الأيام الماضية هي حالة هستيرية جاهلية نموذجية، خرج فيها كثيرون من إسلامهم إلى جاهليتهم وراحوا يهتفون بثارات أبي عيسى كما يهتف الرافضة بثارات الحسين! لا أشك أن أكثر أولئك المجانين الذين ملؤوا العالم الافتراضي صخباً وضجيجاً هم من المخابرات وأعداء الأمة والثورة، ولكنهم ما كان لنفهم أن يزيد الضّرام لولا أن النار كانت قد اشتعلت ابتداء، ولا أراها اشتعلت إلا بأيدي علّماء يخترقون الجماعات على الأرض.

إن جبهة النصرة وحركة حزم مخترقان بالعلماء قطعاً، وليس هذا غريباً، فإننا نعلم أن الفصائل والجماعات كلها مخترقة، إما بواسطة النظام الأسد أو بواسطة داعش أو بواسطة أجهزة المخابرات الإقليمية والدولية التي غزتها كغزو السوس للطعام. هذا أمرٌ لا يمكن الاحتراز منه في ظروف الحرب التي نعيشها في الشام في هذه الأيام.

لا أشك أن أولئك العلماء المدسوسين في النصرة وحزم هم المسؤولون عن إشعال النار. إذا نجح أسلافهم في جرّ أكرم أجيال البشر إلى الاقتتال فكيف سيمتلك ثوار اليوم في سوريا الحصانة من الفتنة؟ هل من طريق لدفعها واجتناب الاقتتال؟ لحسن الحظ: نعم، إذا صدقـتـالـنيـاتـ.

-3-

لا يكون الانفجار إلا إذا اجتمع البارود بالنار، فإذا بقي برميل البارود بعيداً عن شعلة النار أمناً الانفجار. لو بقيت النصرة حيث النصرة وبقيت حزم حيث حزم لما وقع الاقتتال الآخرين، وهو اقتتال سرير في صور متكررة إذا لم نعالج الجذور والأسباب. إذا اختلفت طائفتان فتحركت هذه إلى تلك أو تلك إلى هذه كان التقاء البارود بالنار وكان الانفجار، فلا أمان إلا بالفصل بين المختلتين وبين لا يمشي أحدهما إلى الآخر. من حافظ على موقعه سلماً وسلم منه الآخرون، ومن تحرك إلى الآخر وتسبب في الاقتتال فعليه غضب الله.

الحكم الشرعي الذي أراه هو أنَّ من مishi إلى الآخر فقاتلـهـ فـقـتـلـهـ فـهـوـ قـاتـلـ مـعـمـدـ مـخـلـدـ فيـ النـارـ،ـ وـفـيـ وـفـيـ أـمـثـالـهـ نـزـلـ قـوـلـ اللهـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ:ـ {ـوـمـنـ يـقـتـلـ مـؤـمـنـاـ مـتـعـمـدـ فـجـزـأـهـ جـهـنـمـ خـالـدـ فـيـهاـ وـغـضـبـ اللـهـ عـلـيـهـ وـلـعـنـهـ وـأـعـدـ لـهـ عـذـابـ أـلـيـمـ}.ـ أـخـرـجـ البـخـارـيـ عـنـ أـبـنـ عـبـاسـ،ـ قـالـ فـيـ الـآـيـةـ:ـ هـيـ آـخـرـ مـاـ نـزـلـ،ـ لـمـ يـنـسـخـهـ شـيـءـ.

يا أيها المجاهدون في الشام: إننا مقبلون على فتن عمياً سيحر فيها العقلاء، وإن عاصمكم من الحيرة ومن التلبّس بخطيئة قتل النفس البريئة هو الثبات في الأرض وعدم التحرك بالسلاح على فصيل آخر. إن الساعي إلى موقع الطرف الآخر هو البارئ بالقتال، فإذا أمرك قاتلـكـ بالـتـحـرـكـ لـقـتـالـ مـسـلـمـ فـاعـصـيـ الـأـمـرـ وـلـاـ تـطـعـهـمـ فـيـ مـعـصـيـةـ،ـ بـلـ فـيـ كـبـيرـ الـكـبـائـرـ.ـ اعتزلـ الـقـتـالـ وـأـلـقـ السـلاحـ،ـ وـإـذـ أـلـزـمـوكـ وـهـدـدـوكـ بـالـقـتـلـ فـلـاـ تـكـنـ عـبـدـ اللـهـ الـقـاتـلـ وـكـنـ عـبـدـ اللـهـ الـمـقـتـولـ.

-4-

أما إذا بغي عليك فصيل آخر فهاجمك في أرضك فلا جناح عليك أن تدافع عن نفسك وأرضك بالحق، ففيك -عندئذ- يتحقق حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه، أن رجلاً سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجلٌ يريد أخذ مالي؟ قال: لا تُعطيه مالك. قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله. قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد. قال: أرأيت إن قتلتـهـ؟ـ قـالـ:ـ هـوـ فـيـ النـارـ.

إن قتال المسلم وقتله من أعظم الذنوب ومن أكبر الكبائر، فلا يحل قتاله إلا لردع العدوان الصريح كما جاء في الحديث الصحيح السابق، أو لردع البغي الموصوف في آية الحجرات. أما استيفاء الحقوق الفردية والقصاص في الدماء فلا يكون

بالقتال، بل يكون بالتقاضي إلى القضاء الشرعي. واعلموا أن العفو مقدم على القصاص وأن الصلح خير، فليصبر أصحابُ الحق ولو طال التقاضي وماطل الخصوم، ولا يتسببو في قتال بين المسلمين بذرية القصاص للقتيل من قاتليه.

ولأن القتال بين المسلمين أمر جليلُ الخطير عظيمُ الشأن يدمر الجماعة ويقضي على شوكتها ويمكّن منها عدوها فإنَّ الذي يقرر حالةَ البغي ويبرر قتالَ البغاء ليس أياً من طرفَي النزاع؛ قال تعالى: {فَقَاتَلُوا الَّتِي تَبَغِي}، فوجَّهَ الأمر بالقتال إلى جماعة المسلمين، ممثلاً بقيادتهم السياسية إذا كانت لهم قيادة وإمام، أو بجماعتهم إذا لم يكن لهم إمام، كذلك فسرّها أهل العلم. وقد تحققت عندنا هذه الحالة في الثورة السورية لما خرجت داعش على الجماعة وقاتلت عموم الناس، فاجتمع المسلمون في الشام على وجوب قتالها ودفع شرها، وهذه حالة نموذجية من حالات قتال البغاء في العصر الحاضر تصلح للتدريس في المعاهد والكليات.

-5-

لأنني أبالغ في انتقاد الأخطاء القاتلة ولا أملَّ من نقد المخطئين الذين يجرفون ثورتنا إلى الهاوية صنّفني بعضُ الناس في قائمة مثيري الفتن، وما يزالون يطالبونني بالصمت. غاب عن أولئك الأفضل أن لكل بداية نهاية، وأنَّ من أراد إصلاح النهايات فعله إصلاحُ البدايات.

إذا سارت السيارة في طريق يعلم بعضُ الناس أنه ينتهي بهاوية عميقة فعليهم أن يهتفوا بالسائرين: "احذروا، إنكم تمشوون إلى الهاوية والضياع". وماذا ينبغي أن يصنع السائرون في الطريق؟ عليهم أن يقفوا ويصحّحوا الاتجاه، فإذا لم يفعلوا فسوف يصبح المحذرون: "قفوا ويلكم، أما تسمعون؟" فإذا أصرّوا على المضي في طريق الموت سيتعالى صياحُ الآخرين: "قفوا يا مجانين، إنكم توشكُون أن تسقطوا في الهاوية".

هذا إذا كان السائرون في طريق الهاوية سائقين منفردين في سياراتهم الخاصة، لكن ماذا لو كانوا يسوقون حافلات فيها أولادنا وأهالينا؟ عندئذ لن نصبح بهم -بعد التحذيرات السابقة كلها- قائلين: قفوا يا مجانين! بل سنهتف غاضبين: قفوا يا مجرمون، إنكم توردون أولادنا وأهالينا مواردَ الهلاك.

إن النصيحة والتحذير من الخطأ فريضة، ومن كان محذراً من الخطأ وقسماً في النقد فله الأجر بقدر اجتهاده، أما من دعا إلى التأرّ وھيَّج شعارات الجاهلية وسعى في تسعير النار فهو شريك في الجريمة وعليه وزرها يوم الدين.

الزلزال السوري

المصادر: